نظرة الإمام الخميني (قده) إلى صراع الإستكبار والإستضعاف في الإطار الحضاري

الدكتور الشيخ محمد مهدي التسخيري

المستشار الثقافي للجمهورية الإسلامية الإيرانية في بيروت

مقدمة:

تحتاج البشرية في كل الأزمنة والأمكنة لمصلحين يقوّمون الإعوجاج الطارئ أو المتراكم في الأنظمة السائدة على المستوى السياسي والإجتماعي والإقتصادي والثقافي، أو يبدلون تلك الأنظمة بأخرى تلبي رغبات الشعوب والأمم في العدالة والحرية وتوكيد الهوية الثقافية.

وقد شكّلت الثورة الإسلامية في إيران منعطفاً بارزاً في التاريخ المعاصر، كما شكّلت شخصية الإمام الخميني (قده) نموذجاً فريداً للمصلح أو الثائر نظراً للصفات الجليلة التي اتسمت به شخصيته، إن على المستوى الشخصي أو القيادي.

وكانت هذه الثورة وما زالت موضع بحث ودراسة شغلت بال السياسيين والعلماء ومراكز الأبحاث والدراسات، وكذلك الحال بالنسبة إلى شخصية الإمام الفريدة التي لفتت أنظار العالم في هذا القرن، ولا يسمح المقام هنا بالحديث الشامل عن مرتكزات الثورة وعن فكر الإمام الخميني وعناصر التجديد في حركة الإصلاح أو التغيير الإسلامي التي قادها، لذا سأتناول قضية المستكبرين والمستضعفين والصراع بينهما من منظور الإمام الراحل (قده).

وقبل الدخول إلى صلب الموضوع أشير إلى رأي الإمام الخميني في الثورة الإسلامية، إذ يعتبرها امتداداً واستمراراً لنهضة الأنبياء(ع) الذين عملوا على خطين متكاملين لإصلاح المسيرة الإنسانية: خط إرساء مبادئ التوحيد، وخط إحلال

العدالة الإجتماعية بالتحرر من نير الظالمين، قال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت...**﴾.

فقد تلازمت الدعوة إلى التوحيد مع الدعوة إلى الإبتعاد عن الظالمين وإقامة العدل وبسط الحرية. وكان للتوحيد مفاعيله على الأرض تمثلت بعدم الرضوخ للقوى التي تسلب البشرية عقلها وفكرها وروحها وحريتها، كعبادة الأوثان أو المظاهر الطبيعية التي أرهبت الإنسان فجعلته يؤمن بأساطير وخرافات أبعدته عن عبادة الله الواحد، وجعلته تالياً يرضخ للظالمين والطغاة الذين استأثروا بمقدارت العباد والبلاد.

من هذا المنطلق الرسالي للأنبياء(ع) انطلقت الثورة الإسلامية في إيران، وفي هذا قال الإمام الخميني(قده): «إن معتقداتي أنا وجميع المسلمين هي تلك المسائل نفسها المطروحة في القرآن الكريم والتي بيّنها الرسول الأكرم(ص)، وأئمة الحق(ع) الذين جاؤوا من بعده، وأساس تلك الإعتقادات هو أصل التوحيد، أغلى عقائدنا وأهمها، وطبقاً لهذا المبدأ، فإننا نعتقد بأن الذات الإلهية المقدسة هي وحدها التي خلقت هذا العالم وكل عوالم الوجود والإنسان، وإنها مطلعة على جميع الحقائق وقادرة على كل شيء ومالكة كل شيء، ويعلمنا هذا المبدأ أنه يجب على الإنسان أن يخضع للذات الإلهية الحقة فقط وأن لا يطيع أي إنسان إلا أن تكون طاعته طاعة الخالق».

فمن هذا المنطلق الرسالي انبرى الإمام الخميني في مقارعة النظام الشاهنشاهي الذي عمل على تغريب المجتمع الإيراني، وحاول طمس هويته الإسلامية، ورهن مقدرات البلاد الإقتصادية للمستعمر، وربط قراراته السياسية والمصيرية بفلك السياسة الأميركية.

واستطاع الإمام الراحل أن يحيي الإسلام في هذا العصر، مؤكداً دائماً أن مجد المسلمين وكرامتهم وعزهم لا يكون إلا في ظل الإسلام الذي أغنت حضارته المسيرة الإنسانية بما قدمته من معارف وعلوم.

مجتمع مستكبر وآخر مستضعف:

تزخر خطب الإمام الخميني وكتاباته وأقواله بالكلمات والعبارات القرآنية التي دبت فيها الحياة مجدداً في هذا العصر.

فقد كان همّ الإمام الراحل(قده) إخراج القرآن الكريم من طقوس الجنائز والأموات لينبعث من جديد في الحياة اليومية على كل المستويات، واللافت في خطاباته كلمات لم تكن مألوفة من قبل في قاموس السياسيين الإسلاميين مثل: الشيطان الأكبر، والطواغيت، والإستكبار، والإستضعاف إلى غيرها من الكلمات والعبارات التي شكّل كل منها موقفاً بحد ذاته. وهنا سأتحدث عن الإستكبار والإستضعاف والصراع بينهما أو الأصح بين المستكبرين والمستضعفين والصراع بينهما بحسب رأي الإمام(قده).

أولاً:

- **الإستكبار لغةً:** مصدر استكبر أي امتنع عن قبول الحق معاندة.
- **الإستضعاف لغةً:** مصدر استضعف. استضعف فلاناً، وجده ضعيفاً فركبه بسوء، أو عدّه ضعيفاً وأذلّه.

ثانياً: الإستكبار والإستضعاف إصطلاحاً:

الإستكبار هو تعدّي فرد أو جماعة أو دولة أو دول مجتمعة على الآخرين نظراً لمؤاتاة الظروف الآنية لصالح المستكبر، كامتلاكه قوة اقتصادية أو عسكرية أو علمية أو غير ذلك. ويحشد كل طاقاته ومبرراته لتبرير أو تسويغ اعتداءاته المباشرة وغير المباشرة. والإستضعاف هو الوجه الآخر للإستكبار، حيث يستضعف القوي الضعيف بما يملك من قوى ونفوذ، فيرزح المستضعفون تحت نير المستكبرين وتكون مصائرهم مهددة، وخيراتهم منهوبة ما لم ينتفضوا ويضعوا حداً لأطماع المستكبرين.

للإستكبار صور ودرجات تتمظهر بحسب موقع المستكبر في الخريطة العالمية

والمحلية ،وكذلك الحال بالنسبة إلى المستضعفين ومكامن ضعفهم وقوتهم.

أشكال الصراع بين الفئتين:

إن الصراع بين المستكبرين والمستضعفين صراع دائم بدوام الحياة لأن الإنسان إن لم يهذب نفسه ويزكّها دوماً فإنه عرضة للطغيان وظلم بني جنسه.

وقد عرفت البشرية هذا الصراع منذ وجودها على الأرض وتجلى هذا الصراع وما يزال بصور مختلفة وأشكال متعددة، فطوراً كانت الغلبة للمستكبرين وتارة أخرى كانت للمستضعفين الذين كانوا يهبّون وينتفضون بوجه المستكبر، وكما يقول الإمام الخميني(قده): «كان المستضعفون طوال التاريخ إلى جانب الأنبياء وأوقفوا المستكبرين عند حدهم».

ورأى الإمام الخميني(قده) أن الإستكبار في العصر الحديث يتمثل بأميركا بشكل أساسي والإتحاد السوفياتي قبل سقوطه، والأيادي العميلة المحلية لكليهما. فنبّه في خطبه وبياناته الى أن أميركا هي العدو الأول للشعوب المستضعفة، فسماها الشيطان الأكبر منطلقاً في هذا ،لا من عقدة نفسية اتجاه أميركا، بل من السياسة السلطوية الأميركية تجاه الدول المستضعفة، ولا سيما منها الدول الإسلامية، تلك السياسة التي خلّفت مآسي ومشكلات متفاقمة، أدخلت الشعوب المستضعفة ودولها في دوامة العجز الإقتصادي والمشكلات الإجتماعية والهزات السياسية التي لا تنتهي فصولها، ولذلك قال الإمام الراحل(قده): «أميركا هي العدو الأول للشعوب المستضعفة»، وذلك بسبب سياستها كما أسلفنا، وقد سُئل الإمام عن علاقة الدولة الإسلامية بأميركا في المستقبل، فأجاب: «يجب أن نرى ما هو دور أميركا في المستقبل، إذا أرادت أن تتعامل معنا كما تتعامل الآن مع الشعب الإيراني، فإننا سوف نعاديها، أما لو تعاملت مع حكومة إيران من خلال الاحترام فإننا سوف نلتزم بالإحترام المتقابل، ونتعامل معها بشكل عادل فلا نظلمها ولا تظلمنا، ولا نبرز أي إشكال».

وقد كان ينبّه الإمام دوماً لمخططات الإستكبار في الإستيلاء على مقدرات الدول

والشعوب المستضعفة، وكان يحث على مجابهة ذلك بمختلف الوسائل المتاحة لدى الشعوب وبالطرق المتعددة، مؤكداً ذلك في مختلف المناسبات السياسية والإجتماعية والدينية وأمام الأحزاب والمنظمات والشخصيات والوفود الإيرانية وغير الإيرانية وأمام أبناء الديانات السماوية، فكان يوجه نداءاته إلى كل الشعوب المستضعفة بغض النظر عن دياناتها وانتماءاتها العقيدية، يحثهم على مقارعة الإستكبار بما أمكن من الوسائل، وعلى التحرر من تبعات الصلة به ومن هيمنته على المستوى السياسي والإقتصادي والإجتماعي والثقافي، ومن جملة ما قاله الإمام في هذا الصدد: «أوصي الشعوب الشريفة المظلومة والشعب الإيراني العزيز أن لا يحيدوا عن الطريق المستقيم الذي لا يرتبط بالغرب الكافر الظالم ولا بالشرق الملحد وأن يظلوا على الصراط المستقيم... بثبات وعزم، وأن لا يدعوا الأيادي الخبيثة لعملاء القوى الكبرى في الخارج أو الداخل الذين هم أسوأ من الأجانب تزعزع إيمانهم وإرادتهم الصلبة».

وإذا تمظهر الإستكبار جلياً على مستوى السياسة والإقتصاد فإن الإمام أولى المستوى الثقافي أو الجانب الثقافي من الإستكبار اهتماماً كبيراً لمحاربته، ذلك لأن الغزو الثقافي ولا سيما عبر وسائل الإعلام يعمل على تدمير بنية المجتمع الثقافية وما يستتبع ذلك من اتباع تقاليد الغربيين وعاداتهم في المأكل والمشرب والملبس وأساليب الحياة كلها، إذ يتوهم المتغرّبون أن الأخذ بتكنولوجيا الغرب يلزم محاكاة العادات الإجتماعية المتبعة عندهم.

ويمتد الإستكبار ليشمل بعض مناهج وطرق التفكير عند عدد من علماء الغرب، فوجود روح الإستكبار أو روح العنصرية في الثقافة الغربية، كما يقول الدكتور علي شريعتي، بارز للعيان، فهي موجودة في أفكار كثير من علمائهم أمثال نيتشه وهيغل وكانت وفرويد وزيغفريد وأرنست أرنان الذي يقول: إن الغربي بطبيعته رب عمل والشرقي عامل!

كما حاول بعض علمائهم تمييز مخ الإنسان الغربي عن سواه تأكيداً لتفوقه

بالخلقة والطبيعة، وبالتالي، تسويغ المبررات التي ترى أن الشعوب المستضعفة غير قادرة على حكم نفسها بنفسها، ولذا، فإنها تحتاج دوماً إلى الغربي المتفوق لقيادة بلادها!

أما بعض مؤرخيهم فإنهم يغضون النظر عن حضارة بلاد ما بين النهرين وذلك لأهميتها، وكل الشعوب من غير أصل غربي، هم برابرة (أي همج رعاع) بالنسبة إليهم، فعندما يتحدثون عن حرب الفرس والرومان فإنهم يقولون: حرب اليونانيين والبربر، وكذا حديثهم عن الشعوب الشرقية الأخرى.

وقد وعى الإمام الخميني أهمية الثقافة في بناء المجتمعات أو في هدمها، فقال: «مما لا شك فيه أن ثقافة أي مجتمع تُعد أهم وأعظم عنصر يؤثر بشكل أساسي في كيان ذلك المجتمع، وأساساً، فإن ثقافة أي مجتمع إنما تشكل هوية ووجود ذلك المجتمع، وإن الإنحراف الثقافي يؤدي إلى خواء ذلك المجتمع وشعوره بالفراغ على الرغم من أنه قد يكون قوياً ومقتدراً في المجال الإقتصادي والسياسي والصناعي والعسكري».

وقد عقد آماله على الطلبة الجامعيين في التصدي للمسائل الثقافية، واسترجاع الهوية الثقافية الإسلامية التي أضاعها الشباب في سني الإستيلاب الثقافي، وكان يحثهم دوماً على عدم القبول بكل ما هو وافد دون تمحيص أو تدقيق ودعاهم إلى عدم التخلي عن هويتهم الثقافية الخاصة بهم أمام حركة الإستكبار الثقافية. مقراً أو متقبلاً أن الغرب تقدم على مستوى العلوم التي تطورت بعد تنامي الحضارات الإنسانية وتفاعلها وتأثيرها المتبادل في ما بينها، وبرز تطورها في هذا القرن، إلا أن الإمام لا يقبل جانب الفساد الأخلاقي الذي ترافق مع الثورة الصناعية والثورة العلمية، فيقول: «إننا نقبل التقدم الحاصل في الغرب لكننا نرفض فساده».

كما كان يرفض الروح الإستكبارية والسلطوية التي رافقت اكتشاف بعض العلوم واستخدمت تلك الإكتشافات لتدمير شعوب وجماعات بدلاً من إدراجها في مصلحة الإنسانية.

إذاً، الإستكبار بنظر الإمام قد يكون سياسياً وقد يكون اقتصادياً أو اجتماعياً أو علمياً أو ثقافياً، والشعب الذي يتعرض لأي نوع من أنواع الإستكبار يكون شعباً مستضعفاً.

المستكبرون... غرباً وشرقاً

إذا كان الإمام الخميني(قده) قد ركّز على أن الإستكبار العالمي يتمثل اليوم بالغرب كقوة سياسية واقتصادية تعمل على نهب ثرواتنا وعلى رأسها أميركا، فإنه لم يغفل عن المستكبرين في الشرق وداخل الدول المستضعفة ذاتها، وربما بين أفرادها، والمستضعفون كما رأينا، هم الشعوب والجماعات والأمم والدول والأفراد الذين هم عرضة لأطماع المستكبرين، وهذا يعني أن الإمام الخميني(قده) قد صنّف العالم إلى عالم مستكبر وآخر مستضعف، دون خصوصية الجغرافيا والحضارة، مع تأكيده أن أميركا تمثل الإستكبار العالمي، وذلك للجرائم الظاهرة والخفية التي تقترفها بحق الشعوب المستضعفة.

صراع المستكبرين والمستضعفين لا صراع الحضارات

وهنا يبرز السؤال التالي: هل هذا يعني أن قدر الغرب والشرق هو قدر الصراع والتصادم، وبالتالي، تأكيد نظرية هنتنغتون حول صراع الحضارات أم أن الصراع هو صراع بين قوى ظالمة وأخرى مظلومة؟

في الواقع، إن مروجي فكرة صراع الحضارات أو تصادمها ينطلقون من فكرة استكبارية لا ترى إلا التقاتل والتصادم بين الحضارات المتمايزة وتكون، بالتالي، الغلبة للأقوياء، وينفون إمكانية وجود أي حوار بين الحضارات أو الديانات.

وإذا كان الإمام الخميني يؤكد أن الصراع مستمر بين المستكبرين والمستضعفين، فلا يعني هذا عدم قبول الآخر المختلف ومحاورته والإعتراف به، فمجابهة المستكبر الذي يصر على التدخل في الشؤون الداخلية للبلاد الأخرى وعلى نهب خيراتها وثرواتها بالطرق المباشرة أو الملتوية شيء، ومحاورة من يعترف بكيان الأمم والشعوب واستقلال بلادهم شيء آخر، ومما قاله الإمام في هذا المجال:

«إننا لا نعادي أي شعب، لقد جاء الإسلام لجميع الملل... إننا أصدقاء مع من يتعامل معنا إنسانياً»، وقال أيضاً: «إننا نحب الإنسان، وكان نبينا العظيم يحب الإنسان أيضا، وتحمل من أجل البشر المشاق والصعوبات، وإننا نتبعه في ذلك، ونقيم علاقات حسنة مع جميع فئات البشر، ومع كل المستضعفين في العالم، بشرط أن تكون هناك علاقات متبادلة واحترام متقابل»، ثم يتابع ويقول: «إننا نريد السلم، نريد العيش في ظل السلم مع جميع الناس في العالم، نريد أن نكون مسالمين مع جميع الناس، نريد العيش وسط شعوب العالم، لكنهم (أي المستكبرون) لا يسمحون لنا به».

من خلال أقواله، حدد الإمام الراحل(قده) أساس التعامل مع الآخر، وهو الإحترام والتعامل الإنساني بالمثل دون طغيان أو استكبار، وحتى الذين خالفوا الإسلام فكراً وعقيدة فإن الإمام سمح لهم ببيان أفكارهم ومعتقداتهم شرط عدم الإخلال بالأمن والتعامل مع أعداء الجمهورية.

وفي هذا قال(قده): «إن الماركسيين أحرار في بيان عقائدهم في المجتمع الذي نفكر بإقامته لأننا واثقون بأن الإسلام يلبي حاجات الناس وأن إيماننا واعتقادنا قادران على مواجهة عقيدتهم، وقد طرحت الفلسفة الإسلامية منذ البداية موضوع أولئك الذين ينكرون وجود الخالق، إننا لم نسلب حريتهم أبداً، أو لم ننل منها، فالكل حرّ في بيان عقيدته، لكنه ليس حراً في التآمر».

فالحضارة الإسلامية لم تستكبر على باقي الحضارات الأخرى، بل استطاعت استيعاب ثقافات الأمم المغلوبة ومزجها وهضمها داخل منظومتها الفكرية بعد طرح ما خالف أصولها، فقد أخذ المسلمون من تلك الثقافات ما واءم دينهم ومعتقداتهم، وهذبوها وطوعوها إيذاناً بأسلمتها.

إذاً، ليس هناك محل مقارنة بين صراع المستكبرين والمستضعفين وبين صراع الحضارات التي يروج لها بعض علماء الغرب وعلى رأسهم هنتنغتون، فالمستضعفون حقوقهم مغتصبة، وإرادتهم مسلوبة وثرواتهم منهوبة ودولهم

غارقة في الديْن والعجز الإقتصادي، لذلك فإن الصراع سيبقى قائماً بينهم وبين المستكبرين حتى ولو لم يتجلّ هذا الصراع على شكل ثورات.

أما الحضارات، فلا بد لها من الحوار والتلاقي والتفاعل خدمة للبشرية في طريق تكاملها الإنساني، وأما أفول بعض الحضارات القديمة أو انقراضها فله أسبابٌ ليس مقام بحثها هنا.

وفي حوارنا مع الآخرين يؤكد الإمام(قده) على وجوب استقلاليتنا حتى على المستوى الفكري، وإلا تحوّل الحوار إلى آراء تُفرض بالقوة وإلى استضعافنا، فكان يحث على التخلص من التبعية للغرب بما فيها التبعية الفكرية، ومما قاله في هذا المجال: «ما لم نتخلص من التغرّب ونبذل منهجنا في التفكير ولم نعلم قيمة أنفسنا، فلن نستطيع أن نكون مستقلين» وقال أيضاً: «إن هذه التبعية الفكرية للغرب هي سبب أكبر المصائب التي لحقت بالشعوب وبشعبنا أيضاً» ذلك لأن التبعية الفكرية تستتبع التبعية الإقتصادية والسياسية، والمستلب فكرياً لا يرى ما حوله إلا من خلال النظارات الغربية، فيصعب عليه عندئذ معرفة العدو من الصديق، والمستكبر من المستضعف، لا بل يروج لمخططات عدوه من غير قصد الخيانة.

وقد أمل الإمام الخميني أن تصبح إيران والدول المستضعفة مكتفية ذاتياً على كل المستويات لا من أجل قطع الحوار مع الغرب بل من أجل قطع التبعية له، وإذا كان لا بد من الحاجة إلى صناعات الغرب فلتكن من الدول التي تكن الاحترام لنا، فيقول الإمام(قده): «إن احتياجنا بعد كل هذا التخلف المصطنع إلى الصناعات الكبيرة للدول الأجنبية هو حقيقة لا يمكن إنكارها، بيد أن هذا لا يعني أننا يجب أن نرتبط في العلوم المتطورة بأحد القطبين: أميركا والإتحاد السوفياتي سابقاً، إلا أن يأتي يوم إن شاء الله تعالى تقر فيه هاتان القوتان باشتباههما وتسلكان طريق الإنسانية وحب الإنسان واحترام حقوق الآخرين، أو أن يقوم مستضعفو العالم إن شاء الله والشعوب اليقظة والمسلمون بإيقاف هؤلاء عند حدهم...».

هذا غيض من فيض من أقوال الإمام الخميني الراحل ومواقفه من التحديات

الكبرى التي عصفت بالجمهورية الإسلامية الفتية، وإن أفكاره وآراءه ما زالت تشكل منارة لجميع الشعوب المستضعفة ولا سيما للشعب الإيراني، خلافاً لما يصوره إعلام الدول المستكبرة عن أن نهج الإمام الخميني آيل للسقوط والاندثار، وكما يقول الإمام الخامنئي حفظه الله: «إن فكرة انتهاء عصر الإمام الخميني التي يطرحها العدو بمئات الأساليب والتعابير، إنما هي خداع ومكر استكباري لا غير، وإن الإمام الخميني سيبقى رغم أنف أميركا وأعوانها بين شعبه ومجتمعه حاضراً بكل قوة».

وها هي إيران الإسلام اليوم تسير على هدي الإمام الخميني في الحفاظ على منجزات الثورة وتعزيز دولة المؤسسات والقانون التي شدد عليها إمامنا الراحل، كما أنها تسعى لإيجاد الوحدة بين الدول الإسلامية، على أمل تحقيق جبهة موحدة في مواجهة مخططات الإستكبار العالمي وعلى رأسه أميركا وربيبتها إسرائيل التي ما فتئت تبث سمومها في كل أنحاء العالم الإسلامي ولا سيما في فلسطين السليبة، وأروع ما سمعه الإعلاميون الغربيون من السيد خاتمي أثناء زيارة فرنسا، دفاعه بكل جرأة عن حقوق الشعب الفلسطيني ومقاومة حزب الله الشريفة في الجنوب والبقاع الغربي ضد العدو الصهيوني إلى جانب تأكيده على مبدأ حوار الحضارات لا تصادمها.

أخيراً ،ونحن نحتفل بذكرى ولادة الإمام المهدي حامل راية العدالة، نتمنى ما تمناه الإمام الراحل لجميع المستضعفين الإتحاد وتوحيد صفوفهم والإتكاء على مقوّماتهم الداخلية لمجابهة المستكبرين بشتى السبل، فالصراع لن ينتهي وهو باق ببقاء الخير والشر في النفوس، والغلبة إن شاء الله للمستضعفين.